

## الوحدة

للدكتور ابراهيم مدكور

مدرس الفلسفة بكلية الآداب

شبح يهولنا اسمه ، ويزعجنا رسمه ؛ مع أننا لو عرفناه لألفناه ، ولو خبرناه لتمشقناه ؛ ووحشة نفر منها فرارنا من الخطر الدائم ، أو العدو المهاجم ، ولو ثبتنا لها في صبر وجلد لكسبنا المعركة وأصبحنا بوجدنا سعداء ؛ وعزلة قد يضيق لها الصدر ، وتنقبض النفس ، ولكنها عادة لا يمكن أن تكتسب إلا بشئ من الدربة والمران ؛ ورياضة لا تخلو من مجهود أو عناء . وكيف لا تكون مجهدة وهي تقف حجر عثرة في سبيل بعض الفرائز الكامنة ، وتحرم الفرد من لثاؤذ المجتمع ومغرباته الخادعة ، فتحول دون غريزة حب الاجتماع وسد حاجتها ، وتعارض صلوات القرابة والمودة في امتدادها وانبساطها ؛ بيد أنها في كل هذه أشبه ما يكون بالدواء المضيطاط المريض لما يرجوه بعده من برء وشفاء

حقاً إن الوحدة طب للنفوس وعلاج للأرواح ، نستطب بها من ويلات المجتمع وآلامه ، فثقتنا ولو زماناً لهيب الحقد والحسد وسحوم القيل والقال ، وتبعدنا ولو إلى حين عن مظاهر الشره والجشع وظلم الانسان لأخيه الانسان ، فلا تقع العين على وجوه شاكية ، ولا تسمع الأذن أصواتاً باكية ، ولا يقر اللسان مكيدة ، ولا تقاسم اليد في جريمة ، ولا تسمى القدم إلى خطيئة . وقد يما قالوا تشفى الوحدة من المجتمع بقدر ما يشفى المجتمع من الوحدة . وبالوحدة ندرك كذلك أمراض القلب والروح ونعالج أنفسنا بأنفسنا ، فنخرج من زمرة الأهل والايخوان وتيار الحياة الهائج المائج إلى حيث السكون والتأمل ، ونبدد تلك السحب الكثيفة التي نسجتها الجمجمة حولنا ، والأضواء البراقة التي تعشى لها أبصارنا لنرى بين الحقيقة والاعتبار . ولم تكن الوحدة عبادة إلا لأنها توبة وندم وتهذيب وتطهير

وقد عرفت لها الأديان هذه الميزة فدعت إلى الخلوة والاعتكاف الذي لا يراد به مجرد أورااد تتلى أو أناشيد يترنم بها ، بل يقصد أن تعرض صفحة الحياة على بساط البحث وتمقد بحكمة الضمير في جو هادئ ساكن وتقضى بقضائها العادل إن بالبراءة أو الاتهام . وما أحوجنا إلى هذه الرقابة وهذا الحساب الدقيق دون انقطاع ؛ ولكن جد الحياة ولهوها وحلاوة العيش ومرارته تصدفتنا عن ذلك وتاق بنا في بحر لحي لا سكون فيه ولا اطمئنان . ونحن فوق هذا مولعون بستره فواتنا وتنظية زلاتنا ، نسترها على الناس وعلى أنفسنا ، وتتجاهلها وكل الأدلة فأعة عليها : مغالطة مدهشة و صلف كاذب وغرور غريب . وإنك لترى الفرد يأتي أمراً يباه العرف وينكره الدين ، فيسارع إلى أن يبد نفسه في صف المحافظين على التقاليد والتدينين طمعاً في أن ننسى فعلته ونحني خطيئته . وقد نفهم هذا التصنع إن أراد أن يرضى به من حوله ؛ فأما أن يخدع به نفسه فتلك حماقة حماة وغفلة عمياء ؛ وما منا من أحد إلا لاحظ أنه إذا حاسب نفسه على ذنب ارتكبه ، أو إثم اقترفته ، عزم عليها هذا الحساب ، وقد تأنى وتستكبر وتشرذم وتجمع . وكثيراً ما تفر إلى المجتمع لتزوى في ركن من أركانه وتضل في منعرجاته وعطفاته . والجناة والمجرمون أنفر الناس من الميزة والوحدة وأرغبتهم في الجلبة والضوضاء التي تخدر أعصابهم فلا يحسون ولا يشعرون . فلم يكن بد من أن تستشيرنا التعاليم السماوية إلى الخروج من هذا التجاهل المزرى والتسكر الرذول

والتصوف وهو فلسفة الوحدة يرى أن علاج الروح لا يتم إلا إن شخص الإنسان أدواءه بنفسه ، ووقف على عيوبه مباشرة وبدون واسطة ، ثم تعهداها بالتقويم والإصلاح . ويتمتد أن المرء أقدر على هذا التقويم إذا خلا إلى نفسه وخلص من شواغله ؛ فإنه يلتقي بحسناته وسيئاته وجهاً لوجه ، ولا يجروء على البالغة في الأولى ولا على إنكار الأخرى . وإذا صح أن الطبيب هو الذي يقود المريض نحو طريق البرء والمافية ، فلا شك أن المريض هو الذي يقطع هذا الطريق بقدميه . على أنه لا يكاد يوجد طبيب

لعل جيلنا الحاضر الذي انغمس في بحار المادية أخرج ما يكون إليها هذه الوحدة في أثرها الروحي والفكري والأخلاق والعقلي .  
وهنا تسأل : هل نحن نقدرها قدرها وتعلق بأهدافها ؟ وهل يعني الكثيرون منا بلحظات فراغ يطمثون فيها إلى أنفسهم ويركنون إلى أشخاصهم ؟ وهل عراوندنا وتقاليدينا تحترم ساعات الوحدة والانفراد ؟ لا أظن ؛ فإن المقاهي والأندية تأكل نصف أعمارنا أو يزيد ، ويوتنا مبنضة إلينا كل البغض فلا تقصدها إلا للنوم أو الطعام أو الشراب . وقد يصل الأمر بالطلاب أن يذاكر دروسه على قارعة الطريق ، وبالأستاذ أن يحضر أعماله في مجتمع الإخوان ، وبالقاضى أن يدرس قضاياها في ناد عام . وكأننا نأبى إلا أن نفكر جهرة كما أن نتكلم جهرة ، وأن نشترك في كل شيء . لأننا لا نحسن الاستقلال بشيء ، وإذا ما شاء أفراد أن ينظموا أوقاتهم ويخلصوا إلى أنفسهم ولو ساعة أو ساعتين كل يوم عدا عليهم الزوار فقصدهم على غير موعد ، وأطالوا مكثهم لديهم . وبذا أصبحنا لا يشمر واحد منا أن وقته ملكه بحال

ابراهيم مراكور  
كلية الآداب

يستطيع أن يتكهن بعله قبل أن يعرف ظروفها ومكوناتها ، ولا أن يصف دواء قبل أن يقف على حقيقة الشكوى وموضع الألم . فإذا أضحى الليل آسيا كان أعرف الناس بملته وأقدرهم على علاجها . لهذا تمسح الصوفية الوحدة ، وحبيت إليهم الخلوة التي يستطيعون فيها من آلامهم ويداوون أمراض نفوسهم . حقاً إنهم ينشدون وراء الفراق تلاقياً ، ويأملون بعد الهجرة وصلاً ، ويرجون في الوحشة أنساً ، ولكنهم لن يصلوا إلا عن هذا الطريق الوعر والسلك الصعب . فالوحدة وسيلة لهذيب النفوس والأرواح وسلم الوصول إلى القبلة والسعادة

وليس أثرها مقصوراً على الروح فحسب ، بل يتعداها إلى العقل . ففيها تنضج الأفكار وتحترم الآراء وتمحص الحقائق ؛ وفوق سطحها الهادئ تنفجر ينابيع الحكمة ، ومن سمائها الصافية تنزل آيات النور والعرفة . فلولاها ما نعمنا بكثير من الأدب الرائع والخيال العذب والشعر الرقيق ؛ وفي غير جوها لا يستطيع أن يتوفر عالم على فرض بحقه ، أو فيلسوف على نظرية يناقشها ويحللها ؛ وبدونها لا يجد السبيل مصلح إلى وضع نظمه السديدة ومبادئه القويمة . وإذا تبعتنا تاريخ الأنبياء والعظماء والقادة والصلحين والفلاسفة والمفكرين وجدنا أن أشدهم تعلقاً بالمجتمع وشغونه أرغبهم في ساعات خلوة يدبر فيها ما اضطلع به من مهام جسام . ولئن كانت الجمعية تقدم بقدر كبير من الغذاء العقلي فهم في سبيل الحاجة إلى ساعات فراغ يمتثلون فيها هذا الغذاء ، ويتمدون هذه البذور لتخرج للناس أروع الثمرات . ففي ردهات الأكاديمية ومنتزهات اللبسة أخرج أفلاطون وأرسطو أكل وأتم فلسفة عرفت في التاريخ القديم . وفي غار حراء أعد «محمد» صلى الله عليه وسلم نفسه لقبول الوحي الإلهي والتعاليم السماوية . ولولا خلوات العلماء اليوم المستمرة وعزلة في تجاربهم الدائمة ما خطا العلم خطوة واحدة إلى الأمام . وها هو ذا بعض الساسة الماصرين يحتذى حذوهم ، ويسير على سننهم ؛ فإذا ما حز به أمر لجأ إلى نفسه فاستفتاها في غير جلبة ولا ضوضاء . ففي الخلوة سفاء عز أن يتوفر في المجتمع ؛ وفيها ضياء إن مررت به سحب حياتنا الصاخبة خسفته . وفي العزلة تفكير وروية ونظر وتأمل

تسليم خضير

٥٠٥٠



١٠٥٧  
صندوق بريدي

برليشة ذهب عيار ١٤  
مضمون ٣ سنوك

تستعمله الكوكومان لشرقية  
مكتبة ورطبة خضير بساع عبد العزيز بصير